

٤ - فساد الطريقة

في كتاب النثر الفني

للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

سور الفهم أيضاً

ليس الغريب أن يخطئ صاحب الكتاب ذلك الخطأ الشنيع في فهم الواضح من آيات القرآن الكريم كآية سورة هود التي حللنا فهمه إياها في كلمتنا السالفة ، فإن خطأه ذلك إن هو إلا نتيجة لرأيه في القرآن ، ومصادقاً لقوله تعالى : « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه » لكن الغريب أن يخطئ في فهم نصوص ذكرها من كلام الناس خطأ نذكر لك الآن منه صنوفاً

أراد صاحب الكتاب أن يبين أن صحة المعنى لا تكفي لبلاغة الكلام ؛ فزعم أنه « لا يوجد أصدق من قول من قال :

كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء وتساءل : ولكن من الذي يقيم وزناً لصدق هذا الكلام ؟ إن هذا الصدق هو التفاهة بعينها »

والتفاهة ليست في صدق البيت ولكن في الفهم الذي

كل باب من الأبواب الرئيسية بقوله مثلاً عند نهاية باب الجص (انقضت أبواب الجص وأدويتها ، بمحمد الله وعونه يتلوها إن شاء الله أبواب الأكلة المتولدة في جوف الجراح من الجص وغيره وبالله التوفيق)

وفي الباب الأخير الرئيسي الذي ينتهي به المخطوط تكلم المؤلف عن علاجات مختلفة لأعراض الجوارح ، ثم تكلم عن الكلب وصيده وخصائصه وأمارات الفراهية فيه وأحكامه وأدويته ، وانتقل بعد هذا إلى أدوية الفهود وذكر عنها مقتضباً وهو أدوية الفهود : اعلم أن جرب الفهود يعترها من بولها فينبغي أن يفرش الرمل تحتها حتى يصفو شعرها ولا يصيبها شيء من بولها إلا يشربه الرمل ، ويبدل الرمل من تحته كل قليل فإذا جرب فاسحق له الكبريت الأصفر ورتبه بالزيت ، واطل بدنه

لا يدرك أن سر تفاهته هو في الخلف الذي بين شطريه . ذلك أن البيت في صميمه بيت تشبيه ، والتشبيه يتطلب مشبكاً به مفيراً للمشبه ، والقاري يتوقع هذه المفارقة إذا قرأ الشطر الأول ؛ فإذا وجد الشطر الثاني قد كذب هذا التوقع بجعله المشبه به عين المشبه بطل التشبيه عنده ، وهزى بالقائل الذي لا يعرف ما هو التشبيه ، وبالبيت الذي يكذب شطر منه شطراً فالبيت من ناحية التشبيه بيت كاذب ؛ بعد القاري في شطره الأول بشيء يخلفه إياه في شطره الثاني . وهذا الخلف والتضاد بين شطري البيت هو سر تفاهته . فلو حذف منه حرف التشبيه ووضعت مكانه حرف التوكيد لزال من البيت الخلف الذي هو نوع من الكذب ، وحل محله الصدق ، ولا ارتفعت قيمة البيت ارتفاعاً يجعله بمنجاة من أن يكون مثلاً مضروباً في السخرية والاستهزاء ، لكن صاحب الكتاب غي عليه أن التفاهة التي يحسها في البيت راجعة إلى هذا النوع من الكذب فيه ، وتصوير أن البيت قد بلغ من الصدق الغاية ، فدل بذلك على أنه في الحقيقة لم يفهم البيت

ونص آخر وقف صاحب الكتاب عنده موقف العاجز عن الفهم . قول للباقلاني في كتابه إعجاز القرآن يحتاج به لما يراه من أن ما جاء في القرآن على هيئة السجع ليس بسجع « لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع ، وليس

من الجرب فإنه يبرأ منه بإذن الله تعالى والله أعلم ولهذا فإني أشك أن يكون هذا الكتاب كاملاً إذ ليس من المعقول أن يتكلم المؤلف عن الفهم في هذه الأسطر المحدودة بينما نجد تكلمه عن بقية حيوانات الصيد وجوارحه في أبواب متعددة يستوفي البحث ، ومما يزيد في شكى هذا أن الناسخ لم يختم الباب الأخير بالجملة التي يختم بها الأبواب الرئيسية التي بعد ص ١١٦

وفي الكتاب صورتان للبار مرسومتان بالمداد الأحمر ، وهما خاليتان من كل زخرف ، الأولى رسمت تحت عنوان (باب شرح البراة وصفتها) والثانية مرسومة بين أسطر (باب علامة صحة الجراح) . اهـ

كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن ، لأن اللفظ يقع فيه تابعاً للمعنى » وهذا كلام للباقلاني واضح ، يحدد السجع في رأيه كما يعرفه في كلام المستكثيرين منه ، ويرى سجع القرآن يمتاز منه بمخالفة هذا الحد والفصل الذي ذكر ؛ فلم يجعله من قبيله ، وافقته على ذلك أو خالفته . وقد أراد الباقلاني أن يؤكد احتجاجة رأيه بذلك فقال كما روى صاحب الكتاب ، وهذا هو محل الاستشهاد :

« وفصل بين أن ينتظم الكلام في نفسه بألفاظه التي تؤدي المعنى المقصود فيه ، وبين أن يكون المعنى منتظماً دون اللفظ . ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كإفادة غيره ، ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع كان مستجلباً لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى »

نقل صاحب الكتاب هذا الكلام ، ودل في الهامش على موضعه من كتاب الباقلاني ، ومضى يلخص الفكرة فيه من غير أن يلاحظ أن الكلام في الأصل ، وكما نقله غير مستقيم مع رأى الباقلاني لتداخل وقع فيه عند طبع الأصل أو عند النسخ استغلق به المعنى على القارى ، من غير أن يدرك ذلك صاحب الكتاب فيزيل منه التداخل قبل التعليق عليه أو تلخيص الفكرة فيه . والتأمل يبين أن وجه الكلام هو كما يأتي بعد نقل كلمة واحدة مكان كلمة ، وجملة واحدة مكان جملة :

« وفصل بين أن ينتظم الكلام في نفسه بألفاظه التي تؤدي المعنى المقصود فيه ، وبين أن يكون اللفظ منتظماً دون المعنى . ومتى ارتبط المعنى بالسجع كان مستجلباً لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى ، ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع كانت إفادة السجع كإفادة غيره »

وقد تكون الفقرة الأخيرة كما يأتي إذا كان التبادل وقع بين فعلى الشرطيتين لا بين جوابيهما :

« ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع كانت إفادة السجع كإفادة غيره ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كان مستجلباً لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى »

فهذان وجهان للكلام لا بد أن يكون واحد منهما هو ما كتب الباقلاني في كتابه ، إذ لا يتضح معناه بغير ذلك . لكن صاحب الكتاب لم يفتن إلى ما في الكلام الذي نقله من تداخل ، ولم يحاول أن يناقش حجة الباقلاني التي استغلت عليه بذلك التداخل ، وقصر تلخيصه للفكرة على المعنى المتضح من كلام الباقلاني الذي نقلناه أولاً ، موهماً أنه قد تلخص المعنى في الكلام كله ؛ فدل بذلك على تقصيره في تلخيص الكلام وتقليبه ؛ أو على قصوره في الفهم والتفكير

والآن ننتقل إلى مثل ثالث يعمق لا بسجع القرآن ، وإنما بالسجع في القرن الثالث

ذلك أن صاحب الكتاب نقل في صفحة ٨٤ من الجزء الأول من كتابه نصاً من الجزء الأول من كتاب ضحى الإسلام هو : « ونحن نعلم أن هذا العصر — عصر الجاحظ — لم يتكاف فيه سجع ، ولم تؤلف فيه كتب مسجوعة كلها ؛ وإن تكلف فيه سجع ففقرة أو فقرتان . فأما كتاب كله سجع فهذا ما لا نعرفه في هذا العصر »

وواضح أن الإنكار الذي في هذا النص منصب في محيية على أن يكون في عصر الجاحظ كتاب كله سجع ، لكن صاحب النثر الفنى غفل عن هذا أو تفاقل عنه في المناسبات الثلاث التي أشار فيها إلى رأى الأستاذ أحمد أمين

في المناسبة الأولى وهي التي دعت إلى ذكر ذلك النص لتخطئته استشهد على إمكان وجود كتاب مسجوع لرجل من كتاب القرن الثالث بمرص « ابن داود على وضع عناوين الفصول مسجوعة في كتاب الزهرة » وواضح أن القرن الثالث يمتد بعد عصر الجاحظ بنحو نصف قرن ، فلم وجد فيه كتاب مسجوع لما استلزم أن يكون حتماً في عصر الجاحظ . كذلك من الواضح أن عناوين فصول كتاب ليست هي نفس الكتاب ، فوجود العناوين كلها مسجوعة ليس معناه أن الكتاب نفسه مسجوع كله . لكن ذلك هو مبلغ فهم صاحب النثر الفنى للنص الذي أورده لصاحب ضحى الإسلام ومبلغ تفتيده إياه

الكتاب أن يمتد عصر الجاحظ إلى سنة ٨٣٠٠هـ ، لأن الجاحظ مات سنة ٨٢٥٥هـ ، وأن ينفي مؤرخ السجع عن القرن الثالث لأنه نفي وجود كتاب كله سجع في ذلك القرن ، أو في النصف الأول من ذلك القرن !

فقد رأيت الآن ثلاثة أوجه لفهم دكتورنا البجاعة لنص واحد مؤلف معاصر ، ورأيت كيف يحوره ويدوره حتى صيره إلى ما رأيت وما ترى . والأمر إليك الآن في تسمية هذا النوع من التفكير بحثاً أو تسميته عبثاً ، وفي تسمية هذا النوع من التصور تحريفاً أو تحريفاً ، ومن النقل مسخاً أو نسخاً ، ثم في تسميته هذا كله محزاً عن الفهم أو اقتداراً عليه ، وصلاًحاً في الطريقة أو فساداً ؛ فإنت الأمر جل عن التلاحي ، أو قل كما تشاء أن تقول

محمد أحمد الفراري

وفي المناسبة الثانية بشير صاحب الكتاب إلى رأي الأستاذ أحمد أمين بقوله من صفحة ٨٦ : « ولا ينبغي أن نستبعد - كما استبعد الأستاذ أحمد أمين - أن توجد مؤلفات مسجوعة في القرن الثالث ؛ فإن عصرنا الحاضر ينكر السجع على المؤلفين أشد الإنكار وبراه ضرباً من التكلف المقوت ، ومع هذا وجدت في عصرنا مؤلفات مسجوعة ، مثل : (صهاريج الأوثان) و (حديث عيسى بن هشام) و أبواب من (ليالي سطيح) . وقد وقع صاحب هذا الكلام في نفس الخطأ الذي وقع فيه آنفاً ، إذ جعل القرن الثالث هو وعصر الجاحظ سواء ، ونسب بذلك إلى أحمد أمين قولاً لم يقله في النص الذي رواه له ، وإن كان أكبر الظن أن القرن الثالث لم يشهد بالفعل كتاباً مسجوعاً كله ، إن لم يكن هناك على عكس ذلك إلا أدلة صاحب الكتاب . ألا ترى أنه لا يفرق بين عصرنا هذا الذي يستنكر فيه التزام السجع والمصر الذي عاش فيه البكري والمواليحي ؟ أفكان مع يستنكر التزامه قبل نصف قرن حين كتب ذاك الابن ، كما يستنكر ذلك الآن حتى يجعل صاحب النثر الفني رين واحداً ، ويستدل بوجود الكتابين على وجود الضدين في هذا العصر ؟ أم كان التزام السجع مستحسناً كل الاستحسان حين كتب ذاك الكتابان فلا يكون لصاحب النثر الفني فيهما إذن دليل أو برهان ؟

ويقول صاحب الكتاب في مناسبة ثالثة في صفحة ٩٦ : « والقرن الثالث يسميه صديقنا الأستاذ أحمد أمين (عصر الجاحظ) وينفي عنه السجع ، مع أن الجاحظ يسجع ولا يخرج من السجع إلا إلى الازدراج » . أقرأت هذا ووعيته ، وأدركت الفرق بين ما ينسبه صاحب النثر الفني إلى صاحب ضحى الإسلام هنا ، وبين النص الذي يرويه له هناك ؟ صديقه الأستاذ أحمد أمين يسمي القرن الثالث عصر الجاحظ ، وصديقه الأستاذ أحمد أمين ينفي عن القرن الثالث السجع ! وهكذا يصح في فهم صاحب

ظهرت لأول مرة بمناسبة العيد الألفي للفيلسوف أبي العلاء المعري

رسالة الهنداء

لأبي العلاء المعري

جزءان في سفر واحد

شرح وتحقيق الأستاذ الكبير

طاهر كبريتي

الذي حبب الأدب العلاءي إلى كل قارئ
كما حبب القراءة إلى كل قارئ

الثنى ٣٥ قرشاً صاعداً - وللبريد ٦٣ ملها

يطاب من الناشر

دار الكتب الوطنية

بيضان الأوبرا - ت ١٩٥٦١

وفي السودان من مكتبة

كردفان بالأبيض